

عِلْمُ الدِّفَاعِيَّاتِ  
المحاضرة ١٦: أَرْبَعَةُ اخْتِمَالَاتٍ  
أ.ر.سي. سبرول

تَنَاولْنَا فِيمَا سَبَقَ الطَّرِيقَ الْمُخْتَلِفَةَ الَّتِي اتَّبَعَهَا اللَّاهُوتِيُّونَ وَالدِّفَاعِيُّونَ الْمَسِيحِيُّونَ لِلدِّفَاعِ عَنِ مُصَدِّاقِيَّةِ ادِّعَاءَاتِ الْمَسِيحِيَّةِ. وَتَحَدَّثْنَا عَنِ الْأُزْمَةِ الَّتِي نَشَأَتْ بِسَبَبِ نَقْدِ إِيمَانَوَيْلِ كَانْطِزْ، وَعَنْ لُجُوءِ الْبَعْضِ إِلَى أَسَالِيْبِ تَارِيخِيَّةِ وَإِثْبَاتِيَّةِ لِإثْبَاتِ وُجُودِ اللَّهِ. حَاوَلَ آخَرُونَ تَأْسِيْسَ الْإِيمَانِ بِوُجُودِ اللَّهِ عَلَى قَفْزَةِ إِيمَانٍ. وَعَرَضْنَا مُقَدِّمَةً وَجِيزَةً عَنِ الْمُدْرَسَةِ الْإِفْتِرَاضِيَّةِ فِي الدِّفَاعِيَّاتِ. وَوَعَدْتُكُمْ فِي الْمَحَاضِرَةِ السَّابِقَةِ بِالْبَدْءِ فِي عَرْضِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي تَعْمَلُ بِهَا الْمَنْهَجِيَّةُ الْكَلَّاسِيكِيَّةُ لِأَجْلِ إِثْبَاتِ وُجُودِ اللَّهِ. وَهَذَا مَا سَنَفْعَلُهُ فِي هَذِهِ الْمَحَاضِرَةِ.

لِإثْبَاتِ وُجُودِ اللَّهِ، أَحِبُّ اتِّبَاعَ مَنْهَجِيَّةِ كَانِ الْفِيْدِيْسِ أَوْعُسْطِيْنُوسِ أَوَّلَ مَنْ قَدَّمَهَا فِي شَكْلِهَا الْبِدَائِيِّ مُنْذُ قُرُونٍ طَوِيلَةٍ. ثُمَّ قُمْتُ بِتَعْدِيلِهَا قَلِيلًا مُسْتَحْدِمًا أَفْكَارًا مُتَعَدِّدَةً مُسْتَمَدَّةً مِنْ فَلَاسِفَةٍ وَدِّفَاعِيَّيْنِ عَبْرَ التَّارِيخِ. لَكِنَّ الْمَنْهَجِيَّةَ الْأَسَاسِيَّةَ الَّتِي اسْتَحْدَمَهَا أَوْعُسْطِيْنُوسُ هِيَ مُحَاوَلَةٌ تَقْدِيمِ سَبَبٍ كَافٍ لِتَفْسِيرِ الْوَاقِعِ الَّذِي نَرَاهُ. وَمَا نَقْصِدُهُ بِالسَّبَبِ الْكَافِي هُوَ السَّبَبُ الْقَادِرُ أَنْ يُؤَدِّيَ مُهِمَّتَهُ، أَيَّ أَنْ يُقَدِّمَ تَفْسِيرًا مَنْطِقِيًّا لِلْعَالَمِ الَّذِي نَرَاهُ. كَذَلِكَ، تَنَاولَ أَوْعُسْطِيْنُوسُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ بِاسْتِحْدَامِ عَمَلِيَّةِ اسْتِبْعَادٍ، أَيَّ دِرَاسَةِ بَدَائِلِ نَظَرِيَّةٍ مُحْتَمَلَةٍ، ثُمَّ اخْتِبَارِهَا لِرُؤْيَا مَا إِذَا كَانَتْ تَنْجَحُ أَمْ تَرْتُفُ فِي اخْتِبَارِ الْمَعْقُولِيَّةِ.

يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّنَا نَبْدَأُ بِأَرْبَعَةِ اخْتِمَالَاتٍ أَسَاسِيَّةٍ لِتَفْسِيرِ الْوَاقِعِ الَّذِي نَرَاهُ. الْإِخْتِمَالُ الْأَوَّلُ هُوَ أَنَّ خَبْرَتَنَا عَنِ الْوَاقِعِ وَهَمٌّ فِي حَدِّ ذَاتِهَا. هَذَا أَحَدُ الْإِخْتِمَالَاتِ. وَالْإِخْتِمَالُ الثَّانِي هُوَ أَنَّ الْوَاقِعَ الَّذِي نَرَاهُ مَخْلُوقٌ ذَاتِيًّا. وَالْإِخْتِمَالُ الثَّلَاثُ هُوَ أَنَّ الْوَاقِعَ الَّذِي نَرَاهُ ذَاتِي الْوُجُودِ. وَالْإِخْتِمَالُ الرَّابِعُ هُوَ أَنَّ شَيْئًا ذَاتِي الْوُجُودِ خَلَقَهُ.

أَعْلَمُ أَنَّهُ فِي تَارِيخِ الْفَلْسَفَةِ وَالدِّفَاعِيَّاتِ، وَجِدَتْ مَنْهَجِيَّاتٌ فَرَعِيَّةٌ لِإثْبَاتِ وُجُودِ اللَّهِ، لَا تَنْدَرِجُ بِشَكْلِ مُبَاشِرٍ وَدَقِيقٍ ضِمْنَ هَذِهِ الْفِيئَاتِ. لَكِنِّي اسْتَحْدَمْتُ هَذِهِ الْفِيئَاتِ الْأَرْبَعَ كَفِيئَاتٍ عَامَّةٍ يُمَكِّنُ، بِرَأْيِي، أَنْ نُدْرِجَ تَحْتَهَا شَيْئًا أَنْوَاعِ الْحُجَجِ الْأُخْرَى. أَيَّ إِنَّ شَيْئًا أَنْوَاعِ الْحُجَجِ الْأُخْرَى الَّتِي تُثْبِتُ أَوْ تَدْحَضُ وُجُودَ اللَّهِ، أَوْ تُفَسِّرُ الْكُونَ الَّذِي نَعْرِفُهُ، يُمَكِّنُ إِدْرَاجَهَا ضِمْنَ فِئَةٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ الْفِيئَاتِ.

فَعَلْتُ ذَلِكَ مَعَ أَنْوَاعِ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الْمُسْتَمْعِينَ - مَعَ أَسَاتِدَةٍ، وَعُلَمَاءَ، وَفَلَاسِفَةٍ، وَحَتَّى الْآنَ، لَمْ أَلْتَقِ بِأَحَدٍ لَمْ يُوَافِقِ عَلَيَّ أَنْ بَدِيلَهُ الْمُفْتَرَضَ لِأَيِّ مِنْ هَذِهِ الْفِيئَاتِ الْأَرْبَعِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَنْدَرِجَ، بَعْدَ إِعَادَةِ فَحْصِهِ، ضِمْنَ وَاحِدَةٍ مِنَ

الفئات الأربع. إذن، لحسم هذه المشكلة، سأقول إنه، برأيي، هذه الفئات الأربع تمثل قائمة شاملة وعمامة لكل التفسيرات المحتملة للحياة أو للواقع الذي نراه.

سأعود إلى وراء اللحظة، وأقول إنني ذكرت كثيرًا أن أبسط حجة تؤيد وجود الله هي: إن كان شيء موجودًا، فالله موجود. هذا اختصار شديد للحجة، وقد تجاوزت خطوات كثيرة دون أن أقول. لكن ما سأحاول أن أبينه لكم هو أنه إذا كان شيء موجودًا، فلا بد لشيء ما أن يكون موجودًا بالضرورة - أي أن يتمتع بقوة الوجود في ذاته. وبدراسة هذه الفئات الأربع، سأحاول أن أبين أنه إذا كان شيء موجودًا، أو إذا كان أي شيء موجودًا، فالمنطق يقتضي في النهاية أن يكون شيء ما ذاتي الوجود.

دعوني أذكر أمرًا يتعلّق بهذه الخيارات الأربعة. فمن بين الخيارات الأربعة المدوّنة على السبورة، يحل خياران فكرة ذاتية الوجود. فالاحتمال الثالث يقول إن ما هو موجود هو ذاتي الوجود. فمثلًا، أنا أمسك بطبشورة. ولتفترض، على سبيل الجدال، أن هذه الطبشورة ليست من نسج خيالي، وأنها موجودة بالفعل - أي إنها حقيقية. سيتوجب عليّ إثبات ذلك بعد قليل، لكن لتتجاوز الآن هذا الجزء، وتتفق معًا على وجود طبشورة هنا. هذه الطبشورة هي إمّا وهم، وليست موجودة فعليًا، وإمّا هذه الطبشورة خلقت نفسها، أو هي ذاتية الوجود، أو وجدت نتيجة عمل شيء ذاتي الوجود. إذن، لتقديم سبب كافٍ لوجود هذه الطبشورة التي أحملها، لا بد من أن يكون واحد من هذه المبادئ الأربعة صحيحًا. يفيد مبدآن بضرورة وجود شيء ذاتي الوجود. وإن كان ذاتي الوجود، فسيكون أرتليًا، كما أرجو أن أوضح أيضًا.

إذن، يعني ذلك أن أكبر مشكلة نواجهها هي مع الخيارين الأول والثاني، وهما أن الواقع وهم، أو أن العالم الذي نعرفه مخلوق ذاتيًا بشكل ما. قبل أن أتابع، دعوني أقول ذلك: البعض قالوا إن كل خبرة عن الواقع هي وهمية، أي إن كل ذلك وهم. سأتحذّر عن ذلك، وأخصّص له محاضرة كاملة، على ما أرجو. لكن المبدأ الثاني، أي الفكرة القائلة إن الكون مخلوق ذاتيًا، هي إلى حدّ كبير البديل الأكثر شعبيّة والذي يحظى بأشدّ تأييدٍ للخلق الإلهي.

إذا كنتم تذكرون، فُلْتُ في بداية هذه الدورة إنني قضيت بعض الوقت أعلم مقررًا عن الإلحاد، وأصررت أن يقرأ الطلاب المصادر الأولية لأبرز العقول في الفكر النظريّ الغربيّ، الذين هاجموا فكرة وجود الله. وحللنا الحجج التي قدّموها ضدّ وجود الله، وحججهم البديلة لتفسير هذا الكون الذي نعرفه. وحاولت أن أبين، كما أحاول أن أبين لكم الآن، أن جميع هؤلاء توصلوا إلى استنتاج أنه بدلًا من وجود إله يفسّر الأشياء، ويمثّل سببًا كافيًا لوجود أي شيء، هذا الكون، بشكل ما، خلق نفسه. مجددًا، سأتناول ذلك بمزيد من التفصيل.

أَوْدُ الْقَوْلِ إِنَّهُ الْيَوْمَ، مَا يَقْرُبُ مِنْ خَمْسَةِ وَتَسْعِينَ بِالْمِئَةِ مِنَ الْمُلْحِدِينَ، الَّذِينَ يُرِيدُونَ تَفْسِيرَ الْعَالَمِ الَّذِي نَعْرِفُهُ، يُؤَيِّدُونَ شَكْلًا مِنْ أَشْكَالِ الْخَلْقِ الدَّائِي، فِي حِينٍ يَقُولُ آخَرُونَ إِنَّ الْكُونَ أَوْ هَذِهِ الطَّبْشُورَةُ الَّتِي حَمَلَتْهَا أَمَامَكُمْ، هِيَ فِي حَدِّ ذَاتِهَا ذَاتِيَّةُ الْوُجُودِ وَأَرْزَلِيَّةٌ - أَي لَمْ تَكُنْ لِلْكَوْنِ بَدَايَةً. تَسْمَعُونَ كَثِيرًا عَنِ فِكْرَةِ الْإِنْفِجَارِ الْكَبِيرِ، أَوْ عَنِ أَنْوَاعٍ أُخْرَى مِنْ عُلُومِ الْكُونِيَّاتِ وَعُلُومِ نَشْأَةِ الْكَوْنِ، الَّتِي تَقُولُ إِنَّهُ مُنْذُ نَحْوِ اثْنَيْ عَشَرَ إِلَى خَمْسَةِ عَشَرَ أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ مِليَارِ سَنَةٍ، وَقَعَ الْإِنْفِجَارُ الْكَبِيرُ، فَبَدَأَ الْكَوْنُ الَّذِي نَعْرِفُهُ. لَكِنَّ لَا تَزَالُ نِسْبَةُ صَغِيرَةٌ تُؤَيِّدُ أَرْزَلِيَّةَ الْمَادَّةِ. وَسَيَتَوَجَّبُ عَلَيْنَا تَنَاوُلُ ذَلِكَ حِينَ نَصِلُ إِلَيْهِ فِي دِرَاسَتِنَا.

لَكِنَّ الْعَالِيَّةَ، حَتَّى مِنْ بَيْنِ مُؤَيِّدِي ذَاتِيَّةِ الْوُجُودِ الْكَوْنِ، يُوَافِقُونَ عَلَى الْأَقْلَ عَلَى وُجُودِ شَيْءٍ ذَاتِي الْوُجُودِ. وَسَيَكُونُ عَلَيْنَا أَنْ نُحَدِّدَ مَا إِذَا كَانَ هَذَا الشَّيْءُ الْأَرْزَلِيَّ ذَاتِي الْوُجُودِ كَائِنًا رُوحِيًّا وَقَائِفًا وَلَا مَادِّيًّا يُدْعَى اللَّهُ، أَمْ هُوَ الْمَادَّةُ نَفْسُهَا. لَكِنَّ مُجَدِّدًا، أَدَّكَرْكُمْ بِأَنَّهُ مِنْ بَيْنِ هَذِهِ الْفِئَاتِ الْأَرْبَعِ، تُؤَيِّدُ فِئَتَانِ مَبْدَأَ ذَاتِيَّةِ الْوُجُودِ.

قَدْ يَقُولُ الْبَعْضُ "مَهْلًا! أَعْتَقِدُ أَنَّكَ ذَكَرْتَ أَنَّكَ سَتُنْتِثِبُ وُجُودَ اللَّهِ، لَكِنَّ كُلَّ مَا تَفْعَلُهُ الْآنَ هُوَ التَّحَدُّثُ عَنِ شَيْءٍ مَا ذَاتِي الْوُجُودِ". هَذَا صَحِيحٌ. فَمَا أَحَاوَلُ إِثْبَاتَهُ هُوَ أَنَّ الْمَنْطِقَ يَقْتَضِي تَأْيِيدَ وُجُودِ كَائِنٍ أَرْزَلِيٍّ ذَاتِي الْوُجُودِ، لِتَفْسِيرِ وُجُودِ أَيِّ شَيْءٍ فِي هَذَا الْعَالَمِ. وَلَا يُمَكِّنُكَ أَنْ تَكُونَ مَنْطِقِيًّا وَمُتَسِقًا إِذَا رَفَضْتَ ضَرُورَةَ وُجُودِ كَائِنٍ أَرْزَلِيٍّ ذَاتِي الْوُجُودِ. هَذَا مَا أَحَاوَلُ أَنْ أُوضِّحَهُ، بِأَنَّ كُلًّا مِنَ الْمَنْطِقِ وَالْعِلْمِ يَقْتَضِي وُجُودَ كَائِنٍ أَرْزَلِيٍّ ذَاتِي الْوُجُودِ، لِتَفْسِيرِ وُجُودِ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ.

وَطَبِيعَةُ ذَلِكَ الْكَائِنِ الْأَرْزَلِيٍّ ذَاتِي الْوُجُودِ - أَي مَا إِنْ كَانَ عَاقِلًا أَمْ غَيْرَ عَاقِلٍ، حَكِيمًا أَمْ أَسْمَقَ، صَالِحًا أَمْ شَرِيرًا - تَظَلُّ مَحَلَّ نِقَاشٍ. لَكِنَّ الْفِكْرَةَ الرَّئِيسِيَّةَ الَّتِي سَنُعْنَى بِهَا الْآنَ هِيَ الْوُجُودُ أَوْ الْجُوهْرُ الْفِعْلِيُّ لِكَائِنٍ أَرْزَلِيٍّ ذَاتِي الْوُجُودِ. وَمُجَدِّدًا، ذَكَرْتُ أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْمُنْهَجِيَّةِ الْكِلَاسِيكِيَّةِ لِلدَّفَاعِيَّاتِ، وَمَا يُعْرَفُ بِالدَّفَاعِيَّاتِ الْإِثْبَاتِيَّةِ، هُوَ أَنَّ الْمَدْرَسَةَ الْإِثْبَاتِيَّةَ تُحَاوِلُ تَقْدِيمَ حُجَّةٍ مُحْتَمَلَةٍ بِنَاءً عَلَى الْأَدِلَّةِ الْمَادِّيَّةِ، أَوْ مَا نَسَمِيهِ بِالْأَدِلَّةِ التَّجْرِبِيَّةِ، أَي الْأَدِلَّةِ الْمُتَاحَةِ لِلْحَوَاسِّ الْخَمْسِ. نَعْلَمُ أَنَّهُ نَمَّةٌ مُحَدُودِيَّةٌ ضَمْنِيَّةٌ لِلْقِيَمَةِ الْإِثْبَاتِيَّةِ لِلْأَدِلَّةِ التَّجْرِبِيَّةِ. فَهِيَ لَا تُقَدِّمُ الْبَتَّةَ مَا نَسَمِيهِ فِي الْفَلْسَفَةِ بِالذَّلِيلِ الْقَاطِعِ، أَوْ الذَّلِيلِ الْمَنْطِقِيِّ الْمُطْلَقِ، كَالَّذِي يُقَدِّمُ فِي مَجَالِ الرِّيَاضِيَّاتِ، مَثَلًا، وَهُوَ مَجَالٌ قَاطِعٌ تَمَامًا (اِثْنَانِ زَائِدُ اثْنَيْنِ يُسَاوِي أَرْبَعَةً). هَذِهِ مُعَادَلَةٌ مَنْطِقِيَّةٌ، وَتَتَمَتَّعُ بِقُوَّةِ الْإِلْزَامِ الْمَنْطِقِيِّ.

سَبَقَ أَنْ ذَكَرْتُ أَنَّ الْمُنْهَجِيَّةَ الْكِلَاسِيكِيَّةَ تُحَاوِلُ تَقْدِيمَ دَلِيلٍ قَاطِعٍ عَلَى وُجُودِ ذَلِكَ الْكَائِنِ الْأَرْزَلِيٍّ ذَاتِي الْوُجُودِ، وَالذَّهَابَ إِلَى أْبَعَدٍ مِنْ مُجَرَّدِ الْإِحْتِمَالِيَّةِ، وَبِالتَّالِي فِيهِ تَخْتَلِفُ عَمَّا نَسَمِيهِ بِالْمُنْهَجِيَّةِ الْإِثْبَاتِيَّةِ. أَعْنِي أَنَّهُ يُوجَدُ فَرْقٌ بَيْنَ تَقْدِيمِ إِثْبَاتٍ - جَيِّدٍ وَقَوِيٍّ - وَتَقْدِيمِ دَلِيلٍ قَاطِعٍ. إِذَنْ، نَقُولُ هُنَا إِنْ مَا نُحَاوِلُ تَقْدِيمَهُ لَكُمْ لَيْسَ مُجَرَّدَ إِثْبَاتٍ، بَلْ دَلِيلٌ قَاطِعٌ. وَكَيْ يَحْدُثَ ذَلِكَ، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُنِي الْبَدْءُ بِالطَّبْشُورَةِ، لِأَنِّي إِنْ افْتَرَضْتُ وُجُودَ الطَّبْشُورَةِ، أَسَلَّمُ

بِالْإِذْرَاكِ الْحَسِيِّ، وَبِالْحَقِيقَةِ الْمَادِّيَةِ لِهَذِهِ الصَّبُورَةِ، مِمَّا يُلْقِي بِي فِي الْحَالِ دَاخِلَ دَائِرَةِ مَا هُوَ تَجْرِبِيٌّ وَحَسِّيٌّ، أَيَّ مَا أَدْرِكُهُ بِالْحَوَاسِّ. وَهَذَا لَنْ يُوَصِّلَنِي الْبَتَّةَ إِلَى دَلِيلٍ فَلَسَفِيٍّ قَاطِعٍ، بَلْ إِلَى مُجَرَّدِ إِثْبَاتٍ.

لِذَا، عَلَيْنَا أَنْ نَجِدَ نُقْطَةَ بَدَايَةِ مَنْطِقِيَّةً بَحْتَةً. وَنُقْطَةُ الْبَدَايَةِ الَّتِي سَأَحَاوِلُ إِيجَادَهَا هِيَ وَعْيِي الدَّائِي. مُجَدِّدًا، سَنَتَنَاوَلُ ذَلِكَ فِي دِرَاسَةٍ مُنْفَصِلَةٍ. لَكِنْ قَبْلَ أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ، دَعُونِي أَوْصَحُ مُجَدِّدًا أَنِّي لَا أَحَاوِلُ هُنَا تَقْدِيمَ إِثْبَاتٍ، بَلْ دَلِيلٍ قَاطِعٍ. وَهُنَاكَ فَرْقٌ. فَالدَّلِيلُ الْمَنْطِقِيُّ يُجِبُّ الشَّخْصَ الْعُقْلَانِيَّ عَلَى الْإِذْعَانِ لَهُ. دَعُونِي أَكْرِّرُ ذَلِكَ: الدَّلِيلُ الْمَنْطِقِيُّ يُجِبُّ الشَّخْصَ الْعُقْلَانِيَّ عَلَى الْإِذْعَانِ أَوْ الْإِسْتِسْلَامِ لِذَلِكَ الدَّلِيلِ الْمَنْطِقِيِّ.

قَبْلَ أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ، يَجِبُ أَنْ أَصْنَعَ تَفْرِقَةً مُهِمَّةً جَدًّا، صُنِعَتْ فِي عِلْمِ اللَّاهُوتِ طَوَالَ قُرُونٍ. وَكَانَ جُونُ كَالْفِنْ هُوَ قَطْعًا مَنْ نَشَرَهَا، وَهِيَ التَّفْرِقَةُ بَيْنَ الدَّلِيلِ وَالْإِفْتِنَاعِ - الدَّلِيلِ وَالْإِفْتِنَاعِ (لَا أَذْكَرُ إِنْ كُنْتُ قَدْ تَنَاوَلْتُ هَذَا الْأَمْرَ بِالتَّفْصِيلِ. لَا أَظُنُّ. رُبَّمَا ذَكَرْتُهُ بِشَكْلِ عَابِرٍ). لَكِنْ أَوْدُ تَخْصِيصِ بَعْضِ الْوَقْتِ لَهُ الْآنَ - الْفَرْقُ بَيْنَ الدَّلِيلِ وَالْإِفْتِنَاعِ.

الدَّلِيلُ شَيْءٌ مَوْضُوعِيٌّ، بَيْنَمَا الْإِفْتِنَاعُ شَيْءٌ شَخْصِيٌّ. يُمَكِّنُ لِأَحَدِهِمْ أَنْ يُقَدِّمَ دَلِيلًا نَظْرِيًّا قَاطِعًا، وَمُقْنِعًا مَنْطِقِيًّا، وَأَكِيدًا عَقْلِيًّا، لَكِنْ يَرْفُضُ آخَرَ قَبُولَهُ. أَسْتَطِيعُ أَنْ أُثْبِتَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ جَمِيعُ الْبَشَرِ فَايِنٍ، وَكَانَ سُفْرَاطُ إِنْسَانًا، فَدُونَ أَدْنَى شَكٍّ، سَيَكُونُ الْإِسْتِنْتَاجُ مِنْ هَذِهِ الْمَعَادَلَةِ الْمَنْطِقِيَّةِ أَنْ سُفْرَاطُ فَايِنٍ. هَذَا اسْتِنْتَاجٌ قَاطِعٌ مَنْطِقِيًّا، فِي صَوْءِ فَرَضِيَّتِهِ. فَإِذَا كَانَ جَمِيعُ الْبَشَرِ فَايِنٍ، وَكَانَ سُفْرَاطُ إِنْسَانًا، فَلَا مَجَالَ لِلشَّكِّ فِي الْإِسْتِنْتَاجِ بِأَنَّ سُفْرَاطَ، بِحُكْمِ الصَّرُورَةِ الْمَنْطِقِيَّةِ، وَبِحُكْمِ مَا دَعَاهُ لَوْثَرُ بِالْمَنْطِقِيِّ الَّذِي لَا يُقَاوَمُ، فَإِنَّهُ فَايِنٍ. لَكِنْ رُبَّمَا أُثْبِتُ ذَلِكَ بِالْمَنْطِقِ وَالْمَعَادَلَةِ الْمَنْطِقِيَّةِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمْ: "أَنَا مِنْ مَيُزُورِي، وَلَا يُمْنِي كَمْ يَبْدُو ذَلِكَ مَعْقُولًا أَوْ مَنْطِقِيًّا. لَسْتُ أَصَدِّقُ ذَلِكَ. وَلَسْتُ مُقْتِنِعًا. لِأَنَّهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيَّ، لَيْسَ الْمَنْطِقُ دَلِيلًا عَلَى شَيْءٍ".

رَوَى جُونُ مُونْتِجُومِرِي قِصَّةً أَعْتَبَرَهَا قِصَّةً تَوْضِيحِيَّةً تُوَضِّحُ هَذَا الْفَرْقَ. وَهِيَ قِصَّةُ تَشَارَلِي الَّذِي ذَاتَ صَبَاحٍ طَلَبَتْ مِنْهُ زَوْجَتُهُ التُّهُؤُصَ مِنَ الْفِرَاشِ، فَقَالَ لَهَا: "لَا يُمَكِّنُنِي التُّهُؤُصُ وَالذَّهَابُ إِلَى الْعَمَلِ الْيَوْمَ، لِأَنِّي لَا أَسْتَطِيعُ التُّهُؤُصَ مِنَ الْفِرَاشِ". فَسَأَلَتْهُ: "لِمَاذَا؟ مَا خَطْبُكَ؟" أَجَابَهَا: "أَنَا مَيِّتٌ". فَقَالَتْ: "تَشَارَلِي، لَا تَكُنْ سَخِيفًا. أَنْتَ تُكَلِّمُنِي الْآنَ. وَأَسْتَطِيعُ أَنْ أَرَاكَ. فَعَيْنَاكَ مَفْتُوحَتَانِ، وَأَنْتَ تَتَنَفَّسُ. تَبْدُو لِي بِخَيْرٍ. كَفَاكَ تَكَاسُلًا، وَأَنْهَضْ مِنَ الْفِرَاشِ، وَارْتِدِ ثِيَابَكَ، وَادْهَبْ إِلَى الْعَمَلِ". فَأَجَابَهَا: "لَا أَسْتَطِيعُ. فَأَنَا مَيِّتٌ، وَالْمَوْتَى لَا يَعْمَلُونَ، أَلَا تَفْهَمِينَ ذَلِكَ؟" وَهَكَذَا، ظَلَّ تَشَارَلِي مُصْرًّا عَلَى أَنَّهُ مَيِّتٌ. فَتَصَرَّفَتْ زَوْجَتُهُ بِعُقْلَانِيَّةٍ، وَاسْتَدْعَتِ الطَّيِّبَ. فَجَاءَ الطَّيِّبُ إِلَى الْمَنْزِلِ، وَأَخْرَجَ السَّمَاعَةَ، وَاسْتَمَعَ إِلَى ضَرْبَاتِ قَلْبِ تَشَارَلِي، ثُمَّ قَالَ: "تَشَارَلِي، عَلَامَاتُكَ الْحَيَوِيَّةُ طَبِيعِيَّةٌ. فَإِنَّ قَلْبَكَ يَنْبُضُ، وَنَبْضُكَ طَبِيعِيٌّ، وَضَعَطُ الدَّمِ جَيِّدٌ. كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ أَنَّكَ تَمُرُّ بِيَوْمٍ سَيِّئٍ. عَلَيْكَ أَنْ تَنْهَضَ وَتَذْهَبَ إِلَى الْعَمَلِ". فَأَجَابَ: "لَا أَصَدِّقُ هَذِهِ السَّمَاعَةَ، وَلَا أَصَدِّقُ كَلَامَ هَذَا الطَّيِّبِ. لَا يُمَكِّنُنِي الذَّهَابُ إِلَى الْعَمَلِ. فَأَنَا مَيِّتٌ". وَبَرَعِمَ الْجُهْدَ الَّذِي

بَدَلَهُ الطَّبِيبُ لِيُثَبِتَ لِتَشَارِلِي أَنَّهُ لَيْسَ مَيِّتًا وَأَنَّهُ حَيٌّ، رَفَضَ تَشَارِلِي تَصَدِيقَهُ. وَأَخِيرًا، اسْتَسَلَمَ وَقَالَ لِرُوحَةِ تَشَارِلِي: "سَيِّدِي، لَا يُمَكِّنِي الْوُصُولُ إِلَى شَيْءٍ مَعَ تَشَارِلِي. يَتَطَلَّبُ الْأَمْرُ طَبِيبًا مِنْ اخْتِصَاصٍ آخَرَ. عَلَيْكَ اسْتِدْعَاءُ طَبِيبٍ نَفْسِيَّ". وَهَكَذَا، جَاءَ الطَّبِيبُ النَّفْسِيُّ، وَحَاوَلَ مُعَالَجَةَ تَشَارِلِي، وَإِقْنَاعَهُ بِأَنَّهُ مُتَوَهَّمٌ وَعَبْرُ عَقْلَانِيَّ، وَبِأَنَّهُ حَيٌّ. لَكِنَّ تَشَارِلِي رَفَضَ كُلَّ ذَلِكَ. فَوَضَعَ الطَّبِيبُ النَّفْسِيُّ خُطَّةً، وَقَالَ: "تَشَارِلِي، أَوَدُّ أَنْ تُرَافِقَنِي. سَنَذْهَبُ إِلَى وَسَطِ الْمَدِينَةِ". فَسَأَلَهُ: "إِلَى أَيْنَ؟ وَلِمَاذَا؟" أَجَابَهُ: "سَأُصْطَحِبُكَ إِلَى الْمَشْرَحَةِ، لِأُعْطِيكَ دَرَسًا عَنِ الْمَوْتِ". فَاصْطَحَبَ تَشَارِلِي إِلَى الْمَشْرَحَةِ، وَقَالَ: "تَشَارِلِي، أَوَدُّ أَنْ تَفْهَمَ أَمْرًا. حِينَ يَمُوتُ النَّاسُ، تَتَوَقَّفُ قُلُوبُهُمْ عَنِ الْحَفَقَانِ، وَلَا يَنْزِفُونَ بَعْدُ". ثُمَّ أَخْرَجَ إِحْدَى الْجُنُثِ مِنَ الصُّنْدُوقِ، وَأَمْسَكَ دُبُوسًا، وَعَرَسَهُ فِي إِصْبَعِ قَدَمِ الْجُنَّةِ، فَلَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا دَمٌ. وَقَالَ: "أَرَأَيْتَ يَا تَشَارِلِي؟ الْمَوْتَى لَا يَنْزِفُونَ". فَأَجَابَ تَشَارِلِي "هَذَا مُذْهَلٌ، لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ ذَلِكَ". فَسَأَلَهُ الطَّبِيبُ: "هَلْ أَنْتِ مُتَأَكِّدٌ؟ وَهَلْ فَهَمْتَ مَا فَعَلْتَهُ لِتَوَيِّي؟" قَالَ تَشَارِلِي: "نَعَمْ، فَهَمْتُ. فَأَنَا رَجُلٌ ذَكِيٌّ، وَأَفْهَمُ مَا فَعَلْتَهُ؟" فَقَالَ الطَّبِيبُ النَّفْسِيُّ: "عَظِيمٌ". ثُمَّ أَصَافَ: "وَالآنَ يَا تَشَارِلِي، أَعْطِنِي إِيهَامَ يَدِكَ لِلْحِظَّةِ". فَأَبْرَزَ تَشَارِلِي إِيهَامَهُ، ثُمَّ أَخْرَجَ الطَّبِيبُ دُبُوسَهُ وَوَحَزَ إِيهَامَ تَشَارِلِي. وَفِي الْحَالِ، ابْتَدَأَ إِيهَامُ تَشَارِلِي يَنْزِفُ. فَقَالَ الطَّبِيبُ "أَتَرَى يَا تَشَارِلِي؟ مَا رَأَيْكَ؟" فَأَجَابَ تَشَارِلِي: "يَا لِلْعَجَبِ! الْمَوْتَى يَنْزِفُونَ فِي النَّهَائِيَةِ!" تُعْجِبُنِي تِلْكَ الْقِصَّةُ لِأَنَّ التَّقِينَا جَمِيعًا بِأَشْخَاصٍ يَرْفُضُونَ الْإِذْعَانَ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ الْمَنْطِقِ وَكُلِّ الْأَدْلَةِ، لِأَسْبَابٍ عَاطِفِيَّةٍ، أَوْ بِسَبَبِ تَحْيِيزٍ مُعَيَّنٍ، أَوْ لِأَيِّ سَبَبٍ آخَرَ.

هَذَا مَا عَبَّرَ عَنْهُ جُونُ كَالْفِنِ فِي بَدَايَةِ كِتَابِ "أُسُسِ الدِّينِ الْمَسِيحِيِّ"، فِي حَدِيثِهِ عَنِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ. فَهُوَ يُؤْمِنُ بِأَنَّ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ يُقَدِّمُ أَدْلَةً مَوْضُوعِيَّةً تُسَدُّ أَفْوَاهَ أَشَدِّ الْمُشَاكِسِينَ، وَبِأَنَّهُ فِي الْوَاقِعِ كَلِمَةُ اللَّهِ، وَبِأَنَّ الْمَوْشَرَاتِ أَوْ الْأَدْلَةَ عَلَى أَصْلِهِ الْفَائِقِ لِلطَّبِيعَةِ وَاضِحَةً جَلِيًّا. لَكِنَّ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مُعَادٍ لِأُمُورِ اللَّهِ، صَارَ لَدَيْهِ تَحْيِيزٌ شَدِيدٌ ضِدَّ حَقِّ اللَّهِ، لِدَرَجَةِ أَنَّهُ لَنْ يَقْتَنِعَ الْبَتَّةَ، مَا لَمْ يُغَيِّرِ اللَّهُ الرُّوحَ الْقُدُسَ مُيُولَ قَلْبِهِ. وَقَالَ كَالْفِنِ إِنَّهُ يَمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، لَيْسَتْ الْمُسْكَلَةُ فِكْرِيَّةً بَلْ أَخْلَاقِيَّةً.

أَعْتَرَفُ أَنَّ هَذَا تَحْدِيدًا مَا نُوَاجِهُهُ مَعَ مَسْأَلَةِ وُجُودِ اللَّهِ. فَوُجُودُ اللَّهِ لَيْسَ مَسْأَلَةٌ يُمَكِّنُ التَّعَامُلَ مَعَهَا بِجَيَادِيَّةٍ. فَكَمَا رَأَيْنَا قَبْلًا فِي هَذَا الْمَقَرَّرِ، الْكَثِيرُ عَلَى الْمِحَاكِّ هُنَا، لِأَنَّ إِذَا اسْتَظَعْنَا إِثْبَاتَ أَنَّ اللَّهَ مُوجُودٌ، أَيْ أَنَّ إِلَهَ الْكُونِ السَّرْمَدِيِّ مُوجُودٌ بِلَا شَكٍّ، فَهَذَا يَعْنِي، كَمَا يَعْلَمُ الْجَمِيعُ، أَنَّنِي سَأَقْدِمُ لَهُ حِسَابًا عَنِ سُلُوكِي وَحَيَاتِي. وَمِنْ أَسْبَابِ رَغْبَةِ الْبَعْضِ فِي التَّخَلُّصِ مِنْ فَرِضِيَّةِ وُجُودِ اللَّهِ هُوَ أَنْ يَتَحَرَّرُوا مِنَ الشُّعُورِ بِالذَّنْبِ وَمِنْ الْمُسَاءَلَةِ.

إِذَنْ، يَرَعْبُ غَيْرُ الْمُؤْمِنِ بِشِدَّةٍ أَلَّا تَكُونَ الْحُجَّةُ قَاطِعَةً. وَبِالتَّالِي، حَتَّى وَإِنْ كَانَتْ الْحُجَّةُ قَاطِعَةً مِثْلَ الْحُجَّةِ الْمُؤَيَّدَةِ لَوْجُودِ اللَّهِ، كَمَا رَأَيْنَا فِي رُومِيَّةِ الْأَصْحَاحِ الْأَوَّلِ، حَيْثُ أَعْلَنَ اللَّهُ عَنْ وُجُودِهِ بِوُضُوحٍ لِكُلِّ إِنْسَانٍ، لَا يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّ الْجَمِيعَ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِلْإِعْتِرَافِ بِذَلِكَ. لَكِنَّ، لَا تَقْتَضِي مُهِمَّتِي إِقْنَاعَ أَحَدٍ بِأَنَّ اللَّهَ مُوجُودٌ. فَلَسْنَا مَدْعُوِّينَ إِلَى إِقْنَاعِ

النَّاسِ، بَلْ إِلَى تَقْدِيمِ سَبَبٍ لِلرَّجَاءِ الَّذِي فِيْنَا. وَنَحْنُ مَدْعُوْنَ إِلَى أَنْ نَكُونَ أُمَّنَاءَ تُجَاهَ هَذِهِ الْمَسْئُولِيَّةِ. وَهَذَا مَا سَنُحَاوِلُ فِعْلَهُ فِيْمَا نُوَاصِلُ دِرَاسَةَ هَذَا الْمَوْضُوعِ فِي الْمَحَاضِرَةِ الْمُقْبِلَةِ.

الدُّكْتُورُ أَرْ. سِي. سِنْرُولُ هُوَ مُؤَسَّسُ هَيْئَةِ خِدْمَاتِ لِيْجُونِيْر، وَكَانَ أَحَدَ رُعَاةِ كَنِيسَةِ الْقِدِّيسِ أَنْدْرُو ( St. Andrews Chapel ) فِي مَدِينَةِ سَانْفُورْدِ بُولَايَةِ فُلُورِيدَا، كَمَا كَانَ أَوَّلَ رَئِيسِ لِكَلِّيَّةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلِإِصْلَاحِ ( Reformation Bible College ) وَهُوَ مُؤَلِّفُ أَكْثَرِ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ "كُنَّا لَاهَوْتِيُون" و"أَدَهْسِنِي الْأَلَم".